حدود الترجمة الأدبية

بريهمات عيسى
جامعة التليجي عمار الأغواط

مقدمـــة :

يواجـــه الباحـــث فـــي حـــدود الـــترجمة الأدبية صعوبات جمة، فهي أعصى الترجمات مراسا تتميز بإشكالية مركبة ومتعددة المشارب عسيرة الإدراك ،تحكمها حـــزمة مـــن الشـــروط: إبداعـــية، جمالـــية، أســـلوبية ،لســـانية وخارج لسانية (Extra –linguistique). إن الـــترجمة الأدبـــية ذات إفرازات دلالية لامتناهية حتى وإن كانت بمكونات محدودة في الشكل والتركيب ، إن معانيها ليست دلالات إحالـــة فحســـب بل هي معاني ذات مستويات وعمق تتحكم فيها عناصر بلاغية وبنائـــية وموســـيقية وأيقونـــية تستنفر المتلقي أو المترجم لكد الذهن ابتغاء التأثر والتأثير .

وفـــي هـــذا السياق لم تتعزز أساليب الارتقاء بنص الترجمة الأدبية إلا عبر مـــراكمة المحـــاولات و التجارب التي كانت تتفادى باستمرار النقائص والإخفاق وتســـدد مســـار النشاط الترجمي. و الشائع لدى المختصين في هذا الحقل أن عود الترجمة لم يشتد إلا حديثا في التسعينيات بصدور سلسلة دار رتلدج Routledge فـــي نظـــريات الـــترجمة(1) إذ تجنـــب هذا العلم الأحكام المعيارية و التقديرات الاعتباطية إلى أحكام و مقاييس علمية تسنده نظريات اللسان (التوليدية التحويلية)

و الـــنحو الوظيفي و المقارن بالإضافة إلى التداولية La Pragmatique ونظريتـــي الاتصـــال و الإخـــبار إلى جانب الأسلوبية والشعرية ومفهوم التعادل بوصفه محور نظريات الترجمة (2)

توثـــق علـــم الترجمة بوصفه ظاهرة ذات خصوصية و مادة مستقلة عن باقي الفروع اللسانية . إنه علم و تنظير يفحص هذا النشاط القديم الحديث باعتباره مادة أصيلة و محددة التخوم لا فرعا بسيطا من فروع اللسانيات بل هي حصيلة تضافر و تفـــاعل دائـــم في عملية تواصل و تداول ما بين عنصرين متخاطبين و نظامين لسانيين و ثقافيتين يتعذر تحليلهما و فك إشكالهما استنادا إلى نظرية من النظريات التي لا تستطيع في أحسن الأحوال معالجة إلا وجه من وجوه الترجمة – تاريخي، تداولي ، وظيفي ، أسلوبي ، اجتماعي ، لساني ... _ (3)

على إثر الجهود الحديثة تحول النشاط الترجمي الأدبي إلى صناعة ذات أبعاد لكن لها حدود و عقبات تحول دون تحصيل معاني النص المنبع ومذاقه و شعريته و غموضـــه و إيقاعه و انزياحه وموسيقى معانيه . و ذلك لأن الشعر ـ الشعرية أو الأدبية ـ غالبا ما يختفي عند الترجمة (4) فما هي العوارض النافية أو المعطلة لـــه ؟ ما هي حدود الترجمة الأدبية ، الترجمة الشفافة التي لاتحجب الأصل ولا تخونه ؟

إن الـــذي نـــريد أن نؤكده في مستهل مداخلتنا هو تجنب الفهم من كلمة حدود الترجمة الأهداف التي تنتهي عندها هذه المعرفة أو الصناعة فنحن لا نعني بها هنا إلا العقبات الكأداء المستعصية على المترجمين و التي تشوه و تغير طبيعة النص المترجم و تخل بتعادله و تكافئه مع الأصل و على الخصوص « إذا كانت ترجمة

أدبية يفترض فيها أن تقدم إبداعا أصيلا خاضعا ليس فقط لأسس وظيفية أو لغوية صرف و إنما لأسس جمالية » (5) ذات أبعاد مضافة يجلبها المترجم بعد اختراق فضـــاء الآخـــر و وتحصيل المعنى الظهر والخفي للنص المنبع (6) من قراءات مـــتعددة تتعدى المستوى السطحي إلى مستويات أخرى حرفية ، مجازية ، باطنية، بلاغية، إيحائية Connotatif .

1-حدود التواصل السيكولوجي :

إن الـــنص المســـتهدف بالترجمة مهما حاولنا محاصرة وضبط حدوده إلا أنه يتوجه قصدا وعفوا للمترجم كما يكون قابلا للتوجيه والتحريف من قبله، و في هذا السياق نؤكد أن حدود القراءات التأويلية تحكم و تحدد آفاق المترجم و الترجمة إذ يفـــترض على هذا الأساس أن تكون الترجمة الأدبية متعددة و موحية مثل الأصل غـــير أنهـــا أعقد تركيبا إذ تصبح بؤرة الإشكال الدلالي محملة بإسهامات الأصل (المنتج) و إسهامات المترجم الانفعالية و الخيالية فالمترجم بوصفه مؤولا سعيه معقـــد ومهمـــته تتمثل في قهر المسافة التي تفصل النص عن ترجمته فهو مطالب بأن يفهم و يفهم المتلقي وفقا لتوقعات متفاوتة . (7) إنه بعد تحصيل معاني الأصل يـــترجم داخل لغته Traduction intralinguale(8) تم يشفر ويبلغ ما هو أدبي شـــعري لا متناه و غامض لكن بدوال مختلفة و ضم متميز و تمرير و تعويض فيه كثير من العسر .

إن أولـــى الحـــدود التي تواجه المترجم و توجه الترجمة هي حدود التواصل الحـــدود الســـيكولوجية التـــي تلقي بثقلها و ظلالها على تضاريس النص المصب المشـــروط بالنص المنبع الذي يتحكم فيه إلى حد ما و يحدد مسار تأليفه أو إبداعه

سيكولوجيا لسانيا صوريا و من حيث الغموض والفراغان ، و البياض و الكثافة، و الأيقونـــات التـــي تشـــكل في مجملها الحدود الخاصة بصناعة أدبية و شعرية الترجمة .

إن الجوانب السيكولوجية بكل أبعادها تجعلنا ندرك أن « الترجمة ليست جوهرا ميـــتا فيزيقـــيا ، و إنما هي عملية بشرية لها حدودها و مجهوداتها و نجاحاتها وتاريخها (الذي هو تاريخ نمو قابلية الترجمة Traduisibilité) . فلا يحكم على الـــترجمة بقـــانون الكـــل أو لا شيء . إنها دائما بحث – لا أكثر – عن المرادف الأكـــثر تقريبية لرسالة تنقل من لغة إلى أخرى .« ثم إنها بهذا الاعتبار أحد أجمل انتصارات التواصل الصعب بين البشر » (9). تسهل الحوار وتضيق الفجوة بين مختلف الآداب .

ومـــا يســـترعي الانتباه في حدود صناعة الترجمة الأدبية هو الاختلاف البعيد الأثـــر بيـــن سيكولوجية إنتاج النص الأدبي الأصل المعد للترجمة و سيكولوجية التلقـــي و الـــترجمة . فـــإذا كان الكاتب أو الشاعر حرا في نشاطه الإبداعي فإن المـــترجم أســـير و لا يـــبدع أو يعيد الإبداع إلا في ضيق سيكولوجي تحت رقابة الـــنص المصدر الذي يجب أن « يفهمه و يستوعبه و يتحسس تفاصيله و يؤوله ويحـــافظ على أصالته التي لا تقبل التشويه » (10) و من أجل هذا عليه أن يلجأ إلـــى تأسيس حوار بينه و بين النص المنبع و صاحبه ومتلقيه أين يتجلى قصد كل عنصر قصد المنبع و قصد المصبب و قصد المتلقي ؟

عـــندما يقارب المترجم النص الأجنبي عادة يذيب شخصيته و يتلبس شخصية مـــن يترجم عنه ليتقن عمله . و في هذا السلوك إنئخاذ بشخصية الآخر و تطوع للغة الأم كي تقترب من صيغ و أبنية و دلالات و استعارات اللغة الأجنبية (11) .

فمـــن أجـــل الوصـــول إلى ترجمة موفقة مكافئة يتأرجح المترجم بين الانقياد والانعتاق من سيكولوجية المبدع أو المبدع أو المبدع له . هل هو زجاج شفاف أو ملـــون . لمـــن الهيمنة و الأسبقية أ للنص المنبع أم للنص الهدف ؟ فإذا ما سوينا بينهما تطرح طبيعة الوسيط اللغوي بينهما و يحتدم النقاش حول الترجمة أ هي فن (Levy savory) أم علـــم (Catfood , Nida) أم تقنـــية أم هي شيء مستحيل نظـــريا لكـــن تبرره الممارسة (12) من هنا ليس غريبا أن يضطر المترجم إلى التوســـل بكل آلية من آلية المحاكاة إلى الخيانة الذكية و التعويض إلى التغيير بل يذهـــب حـــتى إلى ما وراء النص من أجل أن ينهض بتفسيره و ترجمته . فهو « كالغـــائص فـــي الـــبحر يحـــتمل المشـــقة العظيمة و يخاطر بالروح ثم يخرج الخرز » (13)

تتأســـس ســـيكولوجية المـــترجم و الترجمة الأدبية على وضع تواصلي معقد ومـــزدوج « باعتبار المترجم متلقي كفائتين لغويتين : كفاءة تلقي خطاب مصوغ بلغـــة أولـــى و كفـــاءة إنتاج لخطاب مصوغ لكن بلغه ثانية مختلفة و تعين هاتان الكفاءتان نمطين من العلاقات أو الملائمات يحددان الترسيمة المثالية لترجمة نص أدبـــي(14) وعلـــى هذا الاعتبار فالمترجم قارئ و مفسر و مؤول قبل كل شيء ولهذا فعليه أن يترك السبيل للنص المستهدف بالترجمة كي يطبع توجهاته و نواياه

الخفـــية ومقاصده البارزة فيه . و هنا لست في حاجة إلى التذكير بأن قابلية التلقي مهمة وضرورية لا يستقيم فعل القراءة أو الترجمة إلا بها .

إن مرحلة القراءة بالنسبة للمترجم تعد طورا ديناميكيا للتفسير أو التأويل ففيها يســـعى جاهدا إلى تحيين و تجسيد قراءة النص بتلاوته على نفسه ليغدو جزءا من تفكيره ووجدانه ، بالترنم به موسيقيا و استحضاره و استقطاره عن طريق السلوك الجسدي بالحركات و اعتناق مزاجه من أجل أن تذعن له معانيه دون قوة، فيتمثل معطـــياته المجردة الساكنة و الباردة الثاوية في أحضان العبارات بدلا من أحضان الواقع العيني الذي ينطلق منه النص المنبع .

و الـــنص هـــنا يجـــب أن يؤخذ باعتباره مناسبة لمواصلة صيرورة الإدراك والتواصـــل لأن إنـــتاج عملية الفهم – قبل الترجمة – تعد سيرورة في الزمان لا يمكـــن أن تحـــدث مرة أخرى بنفس الطريقة أبدا حتى لو عولج نفس النص مرة أخـــرى » (15) فهي نسبية تقترن بالذات القارئة أو المؤولة أو المدركة للنص الجمالي المعد للترجمة و تخضع كذلك لحدود و قيود بيولوجية و نفسية و ثقافية . إن هـــذا الوضع يجعل الحدث السمياءي مختلفا لاختلاف الخلفية اللسانية عند كل منالمبدع والمترجم (16) واستنادا لقول Benjamin Worf فإن البنيات اللسانية تحدد ما يدركه الفرد وتحدد كيفية تشكيل أفكاره

و خلافـــا للطـــور الديناميكي السابق فإن الطور الذهني للتأويل يعنى بترجمة المعاني الغامضة و المخبأة في ثنايا النص وفقا لشبكات القراءات المختلفة من قبل المترجم. و ذلك لأن النص الأدبي لا يمنح معناه و رؤيته بوضوح تام و لأي كان فهو « يتميز في الواقع بأنه أكثر هروبية – زئبقي – وتعدد من الصور فهو يضم

فـــي نفـــس الوقت ما يقال و ما يراد قوله ... و ما لم يقل و هو الذي يعمل كتاب المســـرحيات جاهديـــن للإيحاء به بأنواع من الصمت » (17) هذا بالإضافة إلى المترجم الذي هو بدوره يخلق العمل الأدبي مثله مثل صاحبه الأصلي .

و فـــي هـــذا الســـياق فإن الترجمة مسار إبداع في طور الاكتمال يكون فيها المـــترجم مرتهـــنا بنوع القراءة الموظفة و هو مطالب سلوكيا بأن يمر بالطورين الديناميكي و الذهني للتأويل حتى يحصل على معنى أو يقترحه بعد أن يكون قد ألم بلعبة النص المنبع و دجنه و قام بتحيينه بجسده و ذاته و مداركه و وجدانه . وبهذا النســـق و هذه الآلية فهو في الحقيقة يقوم بعملية تحويل و انفتاح سلوكي من عالم النص إلى عالم القارئ و منه إلى عالم المبدع في تفاوت ملحوظ يفضي ربما إلى إدراك المفارقـــات . إنها مسافة شعرية أدبية مركبة لكن« مرتهنة بأفقين لكل واحد منهما كفاءته و قدرته و أنساقه اللغوية و المرجعية يتفاعلان و يلتقيان في المترجم الـــذي يعـــد لـــيس فقط متلقيا أو مرسلا إليه يقوم بعملية التقاط الخطاب الذي بثه المرســـل بلغـــته الأولـــــى ، و تلقـــيه و فهمه ، بل مرسلا كذلك ينهض بعملية الإنتاج » (18)

إن المسافة الآنفة الذكر تتوقف على عمليات ثلاث الفهم ، التأويل ، التطبيق لا يقطعها المترجم في سكون و برودة بل عليه أن ينزل إلى جحيم النص الذي يسمى صـــمتا و انعـــدام الحديـــث و غياب الكلمة » (19) موظفا انفعالاته و عواطفه الشـــعرية يحاكـــي لعـــبة النص تمثيلا بسلوكه و حركاته بغية الاقتراب من نفس الســـلوكات الإبداعـــية التي كانت سببا في إبداع النص المنبع فيتحول هذا الأخير الســـاكن الهـــامد بشـــفرته و كثافة معانيه و حيزه السيميائي إلى فضاء ديناميكي

تـــتمظهر فيه كل طاقة الألوان و الحركات و الأنوار و الأصوات و المشمومات . إن الـــتأويل التمثيلـــي يحرر و يشرح معظم الأفعال الإبداعية المخبأة في أحضان العلامـــات و يسمح للمترجم ، بوصفه مفسرا و مؤولا ، تحرير الذخيرة و الطاقة الشـــعرية الأدبـــية التـــي يخـــتزنها النص المكتوب وهي مقيدة في سجن الكلمات والعبارات و الفقرات . (20)

إن نـــص الإبـــداع الأصيل أو النص المنبع المعد للترجمة هو في حقيقة أمره محاكـــاة و تعبـــير حركي و إيقاع اختصرته و جردته كلمات النص المكتوب إلى علامـــات أفرغـــت أو نفذ منها الحضور الحركي الحي . و وفقا لهذا التعبير فإن مســـعى المترجم يلخص في بحث و تحيين الأفعال و السلوكات الإبداعية بزمكانها و حراكها المغمور و المحتوى في العلامات . (21)

و عـــند هـــذا الحـــد السيكولوجي أليست الترجمة مجرد مسار عكسي يقطعه المـــترجم انطلاقـــا مـــن العلامات المكتوبة و وصولا إلى السلوكات الإبداعية! الـــترجمة إذن سبر لأعماق النص المنبع بموجبه تحرر الطاقة المبدعة إنها تحرير للطاقة المبدعة للدفق الشعري الثاوي في هذا المعطى الجامد الغامض – النص – الـــذي يحـــتاج إلى التفعيل و الفك و الفتح بغية استحصال و استقطار معان جديدة تجدد قصد صاحبه ، أي أنه عند كل ترجمة تخرج من العالم الممكن الذي تصوره المؤلـــف إلـــى عالم ممكن آخر و هكذا يتولد من كل ترجمة عالم ممكن جديد في تغير متواصل إلى ما لا نهاية .

2-حدود إستراتيجية التموضع :

إن الحدود السيكولوجية ليست الحدود الوحيدة و الأساسية بل هناك كذلك حدود التموضع الإستراتيجي و هي تتمثل في سبل وصف موقع المترجم من نصه والنص المنبع . تحليل هذه العلاقة الإستراتيجية تضيء جوانب أخرى و حدود متنوعة و من أجل تحديد العقبات التي يواجهها المترجم علينا أن نتساءل أين يتموضع المترجم بالنسبة للنص و صاحبه كيف يمسك به ؟ كيف يقترب منه ؟ ما السبيل إلى فك سلطاته و مطالبه و مداه و معانيه و غموضه ؟ لمن يعط الولاء أ للنص أم لصاحبه ؟ و سلطة النص أ هي للماضي أم للحاضر أم لآفاق المستقبل ؟

بهذه الأسئلة المختلفة تؤسس الترجمة لحدود ديناميكية لأن الترجمة الأدبية ليست قبضا و امتلاكا بقدر ما هي تموضع و طبيعة حوارية و أسئلة يثيرها المترجم . وهي بناء على هذه الإستراتيجية لا تنتزع قسرا و لا تنال بفضل منهج صارم متسلط و إنما تنال حسب مزاج الحوار الذي يجريه المترجم لإنقاذ أصالة النص من توجه المنهج العلمي الذي لا يسائل إلا جوانب جد محدودة من النص لأن المترجم في حقيقة الأمر لا يتبع منهجا بقدر ما يوفق و ينظم العلاقة بينه وبين النص في مواقف قد تتراوح بين الخضوع و الترحيب و البشاشة و الاحتفال بهذا النص الذي هو في الحقيقة خلافا لما قلناه سابقا« ليس مجرد أدلة لغوية سوداء خرساء على الصفحة أو آلة كسول كما يحلو لـ امبرتوايكو Eco–Umberto أن يقول » (22) النص ينشأ من تضاريس اللغة فهو تضاريس ويطبع تضاريسه على المترجم الذي بدوره يلقي تضاريسه عليه في موقف تضاريسي والمحصلة فإن الترجمة توليفة وإبداع مميز وغير مطابق للنص المنبع.

إن النص الأدبي ليس جمادا و لا غيابا فهو إنسان و حضور و خطاب و قائل يخاطب المترجم و يؤثر عليه إن هو فتح له صفحة نفسه و ألقى له السمع حتى يمس الوتر الغائر في نفسه بما يصطنعه من إيقاع و صور و ألفاظ و ما يصور من مواقف أو مشاهد أو انفعالات . غير أنه ينبغي أن لا يترجمه بوصفه تعبيرا عن حياة صاحبه لأن النص يحمل بين طياته معنا خاصا يتميز عن شخص قائله ، قوة القول لا تسكن في نفس المبدع و إنما تستقر في النص ذاته . وهكذا لا تبقى الترجمة رهينة تصور الماضي حيا بل على المترجم أن يتحول إذن من المؤلف إلى التراث و الاستعمال والتناص الذي يخاطبه من خلال النص . على المترجم أن يوفق دائما و نسبيا بين دعوى النص و دعوى الحاضر فلا يخضع للنص خضوع من ينكر الحاضر و يهمله . لأن معنى النص المعد للترجمة هو نتاج التكامل بين أفق المترجم الحاضر و أفق النص القديم السابق إن الوعي التاريخي لا ينفصل عن بؤرة الحاضر الماثلة على الدوام في كل فهم و في كل ترجمة .

استنادا إلى نظرية جادامر المتعلقة بالتأويل نرى أن المترجم مطالب بأن يغير إستراتيجية تموقعه من النص المنبع و بدل أن يقطع المسافة بين هذا النص و الأداء و الموقف القديم بوصفه الترجمة حدث في زمكان عليه بضرورة عبور مسافة معاكسة بين النص و الموقف الحاضر لا الموقف الذي انبنى عليه النص بمعنى آخر (23) .

إن الترجمة لا ترادف إرجاعا إلى عالم قديم إنها خادمة الحاضر و عليها ألا ترجع النص إلى أديب أو شاعر أو شخص نفني العمر بحثا عن صيغته . إن الترجمة وصال يجمع ما بين المبدع و المترجم و المتلقي لكنه يتحرك صوب

الحاضـــر و المســـتقبل إنها سلطة الحاضر و مطلبه و قوته في اجتذاب الماضي والتفاعل معه .

و فـــي هذا السياق نجد اتجاها حديثا يبعد قضية التموضع لأن الأدب فن لغوي « و الأبيات لا تنشأ بالأفكار بل بالكلمات » (24) و اللغة سابقة الوجود على كل مبدع و كل إبداع فردي . فهي ترفض ذاتها و تتأبى و تقاوم سلطة الكاتب ، الذي يعتقد أن له سلطة خاصة و غير محدودة ، هي التي تعين لكل أديب مجال إمكاناته التعبيرية . الأدب إذن هو « ما تصنعه اللغة يعني أنه مصنوع بمادة سبق لها وأن كانـــت دالـــة فـــي اللحظة التي احتلها الأديب » (25) بارتBarthes . فعبقرية فلوبـــير الأدبـــية في رواية « مدام بوفاري » Bovary ما هي إلا « عبقرية نحوية » حسب مقولات بروست Proust و ينكر بودلير ، بوصفه مترجما لنص Edgar-Poe المعنون « تركيب القصيد » ، صدق و شفافية الأثر الأدبي المكتوب من وحي المعـــيش فالأديـــب عنده دجال و بدل الاعتراف يلبس القناع و في وسعه أن يبلغ عواطفه حتى و هو لا يشعر بها لأنه يتقن قوانين اللعبة أو الخداع . إن بودلير لم يستدل في ترجمته من الأثر الإبداعي إلى الرجل بل من الأثر الإبداعي إلى القناع و مـــن القـــناع إلـــى « آلـــة الخداع » موظفا التأثيرات الصوتية اللغوية ، التركيبية والمجازية حسب التوفيقات الحسابية للآلة التي تحدث عنها Valery .

لقـــد تغـــير دســـتور الفلسفة الأدبية و الترجمة الأدبية بعد 1850 بعد أن أكد Edgar-Poe أن قصـــيدة « الغـــراب » ليست وليدة عاطفة بل حساب بارد و تقييم منهجي للمؤثرات و الفنيات الأدبية (26)

بعـــد جهود الشكليين و البنيويين و جهود الرمزيين من أمثال مالارمي و بو وبودلـــير أصبحت الكتابة الأدبية ضربا من الإقصاء الذاتي بل انسحابا من نسق الوجـــود و التموضع في حيز اللغة و الأدب و وفقا لهذه المستجدات بات من باب اللزوم أن يقتفي المترجم هذا الأسلوب بتوظيف اللغة في وظائف جديدة و محسوبة تولـــد في النص المترجم المبدع أفقا ترميزيا يجعل حد دلالاته بلا حدود و تماشيا مـــع هذا الوضع « تغدو إستراتيجية المشاكلة مبدأ بنائيا للنص و تستحيل ترجمة الشعر لاستحالة تعريفه فلا يبقى في الإمكان سوى التبادل الخلاق » (27) . إن أنـــواع الخطـــاب الأدبي و خصوصا الشعري يهيمن فيها الشكل فيجعل الترجمة الأدبية ممارسة تتميز بالتعقيد و تتأسس على شروط و تفاعلات جمالية و تناصية و لغوية عزيزة الإدراك .

3ـــالحدود اللسانية

يفهـــم مما سبق و أن ناقشناه أن الترجمة عملية نسبية في جوهرها فهي ترتبط بســـيكولوجية التواصل و الفهم و الإدراك و تتأسس على جوانب تاريخية تجريبية بالإضافة إلى جوانب فوق تداولية تفضي بها إلى تخوم غير محددة أو عدم التحديد indétermination بمعنى تشعب أو فراغ دلالي يستعصي القبض عليه بناء على مقولة R.Ingarden مقولة الفلسفة الظاهرتية .

إن صعوبة الترجمة في النصوص المثقلة بالأدبية La littérarité و الشعرية Poétique يمـــثلها خير تمثيل جهاز جاكبسون التواصلي فهناك العوامل المتعلقة بالـــباث و ثقافته و المتلقي و ثقافته و عوامل أخرى تتعلق بالنص كواقعه أو حدث ملفوظـــي و المـــترجم بوصـــفه متلقي يفسر و يؤول ويترجم أولا داخل اللغة ثم

خارجهـــا ــ Traduction interlinguale ــ انطلاقـــا مـــن تطوراته و أنساقه ونظامه اللغوي المتغير عبر الزمان و المكان و الموقف .

ففـــي عملية التواصل البسيطة تكون الإشكالية – الترجمية – ثنائية لكن عندما يتدخل المترجم وسيطا تصبح متعددة التعقيد (باث + مترجم + متلقي + مؤول + بـــاث + متلقـــي) و عندما توظف العوامل الذاتية للمترجم مثل القصد ، الميول ، والانحرافات ، و الموقف ، و الإسقاط و الانفعالات و التخييل و الإدراك ... تبلغ الترجمة أقصى التعقيد أو اللاتحديد و يستنتج من هذا أن الترجمة لن تكون واحدة و محـــددة فهـــي دائمـــا تـــرجمات مفتوحة على احتمالات و إمكانات تتجافى مع الانضـــباط العلمي و التحديد المطوق للذة النص و أحلامه و إيحاءاته و لا منتهاه فكما يقول Mallarmé :

« Nommer un objet : c'est supprimer les trois quarts de la jouissance du poème qui est faite du bonheur de deviner peu à peu : le suggerer en voila le rève ... » (28) .

لكـــن اللافـــت للانتـــباه أن الترجمة الأدبية مهما حاولنا ضبط حدودها ، تبدو زئبقية و ذات مزاج متنطع ، مركبة الحدود إلى حد فقدان التخوم – اللاحدود – ما تـــنفك تـــتعدد إلى ما لا نهاية ، و ذلك لأن حدودها ترتبط بحدود النص الأصل ، والذي بدوره تحكمه حدود اللغة الإبداعية إلى جانب الحدود الأدبية و الشعرية .

و في هذا السياق فإن لغة النص الأدبي تستعصي على التحديد و الترجمة فهي غالبا ما تغيب المعنى بالرمز و الكناية و بالابتعاد عن الوجهة التداولية و بالتكرير Redondance (29) و التصـــمين Mise en abime (30) و أشـــكال النظم

وهـــي لهذا تعد لغة مستنفرة تكسر التوقعات و سنن التخاطب و تضفي الغموض علـــى ظـــروف الـــتلفظ (Décontextualisation) و لهذه الأسباب و غيرها تستنفر القارئ أو المترجم إلى تأويلها و محاولة ترهينها « فهي بنية كل شيء فيها مرتـــبط بغيره و هي تتغير باستمرار كميا و نوعيا استجابة لصراع الأضداد فيها وخارجها » (31)

و أمـــا النص الأدبـــي فمن حدوده التي يقع عليها إجماع نسبي إنه مغلق على نفسه ليس له حدود مرجعية و خلافا للغات الطبيعية لغته موحية Hjemslev غير أن جاك دريدا J . Derrida لا يحدده بالوجود الفيزيائي و إنما بالحضور الكثيف لكـــل مراحله الممكنة حتى و إن كان بلا أب نسق من الجذور (32) . و من جهة أخرى فهو مفتوح ليس له معنى و لا يحيل إلى فكرة محددة بريئة ، كل قراءة تولد فيه معاني جديدة و المترجم بوصفه قارئا هو مبدع جديد يشارك في صنع النص .

إذا كان النص الأدبي عديم المرجعية و الأبوة فهذا لا يعني أنه مجرد كليا من العلاقـــات التـــي تـــربطه بالواقع الخارجي و أما أدبيته فهي لا تفي بما يشترطه Grice مـــن مـــبادئ لإنجـــاح عملية التخاطب و تحقيق التواصل لكنها تتعلق من وجهة أكثر تركيبا و غموضا مع الواقع خلافا للنصوص ، العادية اللأدبية ، (33) فبيـــنما يـــرجع ملفـــوظ اعتيادي تداولي مباشر للسياقات و الأشخاص و الأمكنة والأشـــياء المدركـــة حســـيا فإن النص الأدبي يبني من المرجعيات ظلال صور مصنعة عن طريق لعبة العلاقات الداخلية في النص نفسه .

و فـــي هـــذا الاتجاه و وفق نمط مغاير لما تفعله لغة التواصل العادية يدفع بنا الأدب و الأدبـــية إلـــى عالم مستقل الدلالات يستعصي على الترجمة لأن العنصر

الدال في الإبداع ليس هو الكلمة في حد ذاتها و معناها المعروف و لكن هو شبكة الـــدلالات الثانوية و التصنيفات و الإيحاءات التي تفرضها العلاقات المستحدثة ، المبدعة بين الكلمات .

ففـــي التواصـــل المعتاد فإننا نوظف الكلمات باعتبارها أشياء بسيطة موجهين اهتمامـــنا إلـــى مستوى أو اثنين على أكثر تقدير من مستويات معناها ،لكن ما أن نســـمح لكل مستويات الكلمة بأن توضع موضع الاعتبار ، لا تعود أي كلمة شيئا بســـيطا بل تغدو شيئا مركبا و العبارة مركبا من مركبات و كذلك المقطوعة إلى أن نصل إلى شكل الأشكال ــLa forme des formes (34)

نظرا لكل الاعتبارات السابقة فإن الترجمة تكاد تعجز عن نقل المعنى المعادل بـــدوال مختلفة و بدون ضياع و تضخيم و تشويه و ندوب التصنيع و الخياطة فلن تكون مثل الأصل لأن حدودها مضاعفة و مركبة .

إذا كان النص الأصلي يتمظهر كتلة واحدة غير قابلة للتجزئة فلأنه كيان لغوي مـــتفاعل العناصـــر يكـــون نسيجا متلاحما متشابك الخيوط . و ليس الأمر كذلك بالنســـبة للنص المترجم الذي غالبا ما يبدو ظاهر النتوءات تتجسد فيه آثار التلحيم بســـبب أنه ينطلق من سياقات نفسية تواصلية و معطيات لغوية جمالية و أسلوبية مغايـــرة و مفارقة تفقده تلقيه و قدرته على التأثير في المتلقي وسبب المفارقة بين النص الأصل والنص المترجم يرجع إلى« حدود وسائل التعبير الخاصة بكل لغة بالإضافة إلى أن أدبية الأدب ليست واحدة في كل اللغات »(35) .

إن وضـــعية الـــنص المـــترجم المركبة والمزدوجة تفضي به إلى اختلال في التناســـب الناشـــئ عادة من العلاقات القائمة بين عناصر الشعر أو الأدب و التي

تصـــيب علاقات اللفظ بالمعنى و اللفظ بالوزن و المعنى بالوزن و المعنى بالقافية وتترتب عنها خسارة (Entropie أو تضخم فلا يتحقق شكل الأشكال ويرغم معظم المترجميـــن إلـــى الخروج على الجنس الأدبي أو ترجمة الشعر نثرا تفاديا لسفك روح الـــنص و هدر دماءه و في هذه الحالة أصبحوا كمن يضع الحي في القبر على حد قول فلريValery .

ولكـــن الـــذي نريد أن نؤكده هنا أننا نحتاج إلى بحث بالغ العمق كي نكتشف حـــدود الـــترجمة الأدبـــية التي هي قبل كل شيء حدود أدبية النص المنبع وهي بدورهـــا مـــتعة قبل أن تكون مبدأ بنائي محدد أو طريقة ضم مخصوصة لصور وتراكيب وأصوات وإيقاعات وأوزان وقوافي وموسيقى وتكرارت تكون في علاقة تكـــامل وتساوق معنا خاصا وهيمنة معينة تجعل الشعر أو الأدبية بالتحديد لا تقبل الترجمة، وما هو ممكن هو التحويل المبدع.

4ـ نماذج تطبيقية:

ســـنقدم نمـــاذج تطبيقية مقتضبة لبعض الحدود أو العقبات التي تعترض سبيل المـــترجم وتضطره إلى الإبداع أو التجديد عندما لا يجد المعادل المناسب (36). يقول المتنبي في إحدى قصائده المبكرة :

أرق على أرق ومثلي يأرق & وجوى يزيد وعبرة تترقرق

نلاحـــظ أن هذه القافات والراءات تؤثر على المعنى الجوهري للبيت وتعطيه معنا فيه نحيب وبكاء وغصة قد لا تحقـــقها الترجمة إلى لغة أجنبية لأن المـــعاني الموســـيقية تخـــتلف مـــن لغـــة إلـــى أخـــرى علـــى مستوى التجانس الصوتي

(Assonance) والتنغـيم(Intonation) والإيقاع(Rythme) الذي يكون مثلا في العربـية كمـيا وفـي الإنجليزية نبريا.والمترجم في مثل هذه الحالة يحل تجنيسا وتنغـيما وإيقاعا أجنبيا محل العربي ويعاني في هذا السبيل صعوبة ويتعذر عليه الـتعادل الـتام مع الأصل فلكل لغة كلماتها وأصواتها المرتبطة إرتباطا عضويا بالإيقاع والأوزان والقوافي والأنغام المعدلة والملونة لمعانيها .

نذكر هنا على سبيل المثال بيتا آخر من الأبيات التي لا تقبل الترجمة إلى لغة أجنبـية لما فيها من إلغاز وتوافق صوتي ومعنوي صعب المنال . إن المترجم في هذا البيت في كل الأحوال لن يحقق كل المستويات وتصاب ترجمته بالنزيف على اكـثر مـن مسـتوى وقـد يلجـأ إلـى النثر ف(القبيحة الوفية خير من الحسناء الخائنة) (37)

أواري أواري والدموع تبينه & وأكتم حر الوجد وقد وقد

هـذه الإلغاز التركيبي والصوتي موجد في كل اللغات لكن بنسب مختلف نذكر على سبيل التمثيل نموذج من أغنيةBobby la pointe .

Au violon /mes sanglots longs / bercent ma peine /j'ai reçu des coups / prés du colon / j'ai mal vers l'aine

هذا التجانس الصوتي الملغز يعطي معاني مضاعفة ظاهرة وخـفية قد يستحيل أن تتكرر مرة ثانية في لغة أخرى .

وأما الشاعر الفرنسي Racine فإنه مولع بالأصوات التي تحدث صفيرا مثل صفير الرياح يقول في البيت التالي :

Pour qui sont ces serpents qui sifflent sur vos têtes

نترجمه كما يلي: ***لمن هذه الثعابين التي تفح فوق هاماتكم***

وأمـــا مواطنه فالري فإنه مولع بأصـــوات الفحيح يحاكي بها أصوات الطبيعة مـــثل حفيف الأشجار وفحيح الأفاعي ونعيب الغربان ونقيق الضفادع وهي تختلف مـــن لغـــة إلى أخرى بسبب الفروق الثقافية وفروق تقطيع الواقع الذي هو بدوره تقطيع لغوي وصوتي .

والملاحـــظ أن الأوزان والـــتدرج والنغمة الصاعدة والهابطة بالتناوب تضفي المـــزيد من الدلالات على المعاني الأساسية وتمثل عقبة كأداء في وجه المترجم ونأتي على سبيل المثال ببيت الخنساء في رثاء صخر إذ تقول :

حمال ألوية ، هباط أودية & حلال أندية، للجيش جرار

بقي علينا أن نشير إلى حد الأيقون الذي يبدو من أصعب العقبات في الترجمة ويمثله بيت الخنساء أحسن تمثيل:

طويل النجاد، رفيع العماد & كثير الرماد، إذا ما شتا

تـــتعذر ترجمة الأيقون لأنه مؤسس على تجربة خرج لسانية وممارسة أدبية قديمـــة بعـــيدة فـــي الزمن وهي مسافة فنية لا يقهرها المترجم وقد لا يجد لها المعـــادل، ما نريد أن نسرف في استقصاء كل الحدود والعقبات ونكتفي بهذا القدر وننتهـــي إلـــى خلاصة مفادها أن قدر الترجمة الإخفاق النسبي والترجمة الأدبية ترجمات منها ما يستهدف العنصر المهيمن في النص الأصل ومنها ما يصبو إلى موسيقى المعنى أو معنى المعنى أو اللفظ وإيقاعه...وهلم جرا.

إن الـــترجمة مهمـــا كانت مثالية فهي لا تعبر كل الحدود بسلام فهي لا محلة تخفـــق نسبيا ،الإخفاق فيها مبدأ إحصائي (38) ، فإذا كانت فيها على سبيل المثال 8 عناصـــر ونجحت في ترجمتها جميعا نكون أمام ترجمة (مطابقة) وهي نادرة،

فـــإذا أخفقـــت في عنصر واحد نكون أمام ترجمة (معادلة) ،وفي عنصرين فهي (مكافئة) وهكذا(مشابهة)ثم (مماثلة) و(مضارعة) و(مقاربة)...

هذا التقييم المتدرج يساهم في إحكام الترجمة على أسس موضوعية ويأخذ بعين الاعتبار معظم الحدود والعقبات.

الهـــوامش

1ـــ عنانـــي محمد ،الترجمة الأدبية،الشركة المصرية العالمية للنشر،لونجمان، 1977، ص5 .

2-المترجم ، يحي بعيطش ، البعد النحوي في نظرية الترجمة ، العدد1 يناير جوان 2001 ، ص 155- ص 179

3-Joelle Redouane , La Taaductologie Seience et philosophie de la traduction Alger , O PU , 1985 , P 27-97

4-مجموعة من النقاد : مختارات من النقد الأنجلو – أمريكي الحديث ، ترجمة ماهـــر شفيق فريد ، المجلس الأعلى للثقافة ، المركز المصري العربي ، 2000 ، ص 54-

5- Joelle Radouane , op . cit , P53

6- Edmond Cary , Comment faut – il traduire , PUF 1985 , P12

7- Mounin. G , Linguistique et traduction , revue de linguistique numero 1-2 1967 , P 44 – 45

8- Fabre . P , La semantique , Ed F . Nathan P 268 .

9-جورج مونان ، الترجمـــة و الميتافيزيقـــا ، ترجمة عبد النبي ذاكر ، العالم الثقافي ، ع182 ، 21 يوليو 1990 ، ص 60 .

10-مجلـــة الوحدة ، الأساليب و المشاكل و الحلول ، نزار الزين ، الرباط ، المجلس القومي للثقافة ، ع33 – 34 يوليو 1987 .

11-. Joelle Redouane , op . cit , P 61-62

12-Jean Delisle , L 'anahyse du discours comme méthode de traduction ottawa , Ed de l'université, 1980 , P 96 .

13-عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص12 .

14-علامـــات ، أحمد باعسو ، الترجمة و التأويل ، ج29 ، 8سبتمبر 1998 ، ص 266 .

15-م . ن ، ص 272 / 273 .

16-Joelle Redouane , op cit , P 177 .

17-Roman Jackobson,Essais de linguistique générale ,Traduit de l'anglais par Nicolas Ruwet , Ed de Minuit ,Paris,1963,p.33.

18-علامات ، م . س ، ص 20 .

19ـــدانيـــيل – هـــنري باجو ، الأدب العام و الأدب المقارن ، ترجمة غسان السيد ، دمشق ، منشورات اتحاد الكتاب ، 1997 ، ص65 .

20-Georges Nonnenmacher , Du Poème à la poétique , un trajct de lecture publication de l'université de Tunis 1990 , P 50 - 70 .

21-bid P.56 .

22-U . ECO : La structure absente Paris 1972 P 170- 190 .

23- Gadamer : Truth and Methode .

24-آداب أجنبـــية ، بريهمات عيسى ، من جانب الأثر الإبداعي النقد البنيوي لـــ آن مورال ، عدد 103 ، صيف 2000 ، ص 39 – 54 .

25-م . ن ، ص 42 .24-م . ن ، ص 44 .

26-م . ن ، ص 46 .

27-صـــناعة المعـــنى و تـــأويل النص ، أعمال الندوة التي نظمها قسم اللغة العربـــية من 24 إلى 27 – آفريل 1991 منشورات كلية الآداب بمنوبة 1992 ، ص 426 .

28-ينظر :. Cohen ,'' Le haut Langage''1979

29-ينظر :. A.Dallenbach , Le récit spéculaire seuil 1977

30-عـــز الدين إسماعيل ، النقد الأدبي بين المعيارية و الوصفية ، فصول ، القاهرة ، مج1 ، ع2 جانفي 1981 ، ص 21-22 .

31-مجلـــة الفكر العربي المعاصر ، التأويل و التفكيك مدخل و لقاء مع جاك دريدا ، هاشم صالح ، العدد 54-55 1988 ، ص 110-116 .

32- P : Grice , Logique et conversation in Communication N 30 – 1979 , P 57.

33-Roman ,Jackobson ,Huit questions de poètique ,Paris, Seuil,p80-96

34 ــ الوجيز في الأدب المقارن، تأليف عدد من المقارنين الفرنسيين،ترجمة غسان بديع السيد، إ .ك.ع. دمشق ،1999، ص72ــ79 .

35-Newmark ,Peter ,Approches to translation ,Londres, Pergamon press ,1982,p.7.

36ـ عبد السلام بن عبد العلي،في الترجمة،بيروت ،دار الطليعة ،ط1،فبراير 2001، ص35.

37 - Mounin ,Georges, L'intraduisibilité comme notion statistique Babel n3,1964,p122-124